الوحدة التعليمية الرابعة

آداب الحوار

مدخل

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول اللّه وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد أخي الطَّالب، سلام اللّه عليكَ ورحمته وبركاته، ومرحباً بك في الدرس الأول من سلسلة الدُّروس المقرَّرة عليك في إطار مقرر "أصول الحوار وآدابه"، لهذا الفصل الدِّراسيّ، آملينَ أن تجدَ فيها كلّ المُتعة والفائدة فأهلاً وسهلاً بك.

ثمرات الوحدة التعليمية

عزيزي الدارس في نهاية هذا الدّرس، يُتاحُ لك -بإذن اللّه - أن:

١. تلم بمفهوم آداب الحوار.
٢. تدرك أهمية الأدب في الحوار.
٣. تقف على بعض من آداب الحوار.
٤. تقف على كيفية التصرف مع من لا يلتزم ببعض آداب الحوار .
٥. تتجلى لديك عظمة الإسلام في تأصيله لآداب الحوار.
٦. تستطيع التحاور بإيجابية.

العناصر

١. العنصر الأول: آداب الحوار: مفهومها ، وأهميتها.

٢. العنصر الثاني: أدب: حسن الاستماع.

٣. العنصر الثالث: أدب: اعتدال المزاج.

٤. العنصر الرابع: أدب الرفق واللين.

العنصر الأول: آداب الحوار: مفهومها، وأهميتها.

عزيزي الدارس، إن **أصل الأدب لغة**: الدعاء، وسمي الأدب أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح؛ ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مَدْعاة ومَأْدُبة، والأدب الظَّرف وحُسْن التناول.

والأدب في الحوار في اصطلاح دراستنا هذه هو: كل ما يدعو إلى حسنه - من أخلاق وغيرها - لا إلى صحته، أي إنه فضل وإن كان مهما، لا يؤثر غيابه في كنه الحوار؛ ومن هنا فيمكن للحوار الإثمار وإن اختلت بعض آدابه إن تحمل طرف طرفا.

وما أشبه الفرق بين الأدب في الحوار والأصل بالفرق بين السنة والفرض. وإن كان للسنة نوعان: مؤكدة وغير مؤكدة؛ فلآداب الحوار مراتب: منها ما يهدف إلى زوال الوحشة ومنها ما يهدف إلى تحقق الألفة.

وتتأتى أهمية الأدب في الحوار من أمور منها:

أولا: مرارة الحقيقة علي الذي عليه الحق، ومن هنا توجب ألا نزيد الحق مرارة بأسلوب تقديمه وتبيينه، ورب كلام أشد جرحا من حسام، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان.

ثانيا: إن الحجة وحدها ليست كافية دوما لتقبل الإنسان لها؛ وإن تقبلها بعقله قد يجحدها بقوله، وإن أقرها بلسانه قد لا يلتزم بمقتضاها في فعله؛ ومن هنا توجب أن يكون الحوار مع الآخر مشفوعا بخطاب للمشاعر الإنسانية، ويتمثل ذلك أول ما يتمثل في الأدب في الحوار؛ يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ

حُسْنًا﴾، ويقول: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ويقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ويؤكد المولى عز وجل على أثر المعاملة الحسنة في النفوس فيقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ولم يكتف القرآن بالأمر بأن تكون المجادلة بالتي هي أحسن، حتى نهى عما دونها تأكيدا للأمر فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ فالأمر بالشيء غير النهي عن عكسه؛ فالنهي أقوى في الدلالة على وجوب الالتزام؛ وفي ذلك يقول النبي ﷺ: "إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".

وآداب الحوار مما يعز على الحصر. **ولعل من أهم آداب الحوار ما يلي:**

- أدب: حسن الاستماع للآخر.
- أدب: اعتدال المزاج.
- أدب: الرفق واللين.
- أدب: تجنب ادعاء احتكار الحقيقة.
- أدب: إنزال الناس منازلهم.
- أدب: البدء بذكر نقاط الاتفاق.
- أدب: الإقبال على المتحاور معه والهشاشة له والانبساط إليه.
- أدب: مشابهة المتحاور معه في النظام التمثيلي .
- أدب: غض الصوت ووضوحه.
- أدب: تجنب الإملال.
- أدب: فصل الكلام وبيانه.
- أدب: التسليم بنتائج الحوار.

العنصر الثاني: أدب: حسن الاستماع

عزيزي الدارس، إن تعلم حسن الاستماع لا يقل أهمية عن تعلم حسن الكلام؛ وإذا كانت البلاغة في تعلم حسن الكلام، فالتعلُّم والتحلُّم في تعلم حسن الاستماع.

والذين يتعلمون فنون الكلام، لا يقارنون بالذين يتعلمون فن الإصغاء، حتى إن هناك علم يهتم بفنون الكلام وهو علم البلاغة وليس هناك علم يهتم بفن الاستماع، واقتصر السماع على كونه أدبا لا يُتوقف أمامه كثيرًا، ولا تفرد له المصنفات.

ولعل ذلك ناشئ من أن رغبتنا في التأثير في الآخرين أكثر من رغبتنا في التفاعل معهم والتعايش السليم؛ فمن غير المتوقع أن يحدث تعايش حقيقي مع الآخر دون الاستماع الجيد له، وأعتقد أن هذا سبب تأخر التعايش المثالي بين بني البشر عامة.

وتتجلى آداب الاستماع للآخر في صور عدة منها ما يلي:

أ- عدم مقاطعة حديثه وإن فعل ما يدعو لذلك، مثل:

- **أن يتحدث بما نعرف**: وفي ذلك يقول عطاء بن أبي رباح: "إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئا". ويقول: "إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد". . ولذلك حكم عديدة منها: إدخال السرور على المتحدث، وسلامة السامع

من العجب بنفسه، والأهم أنه قد يقع في آخر كلام المتحدث ما يظهر منه فائدة جديدة غير متوقعة من حديثه.

- **أن يطيل الحديث:** فيجب عدم مقاطعة المتحدث وإن أطال الحديث إلا إن كانت إطالة أحد طرفي الحوار لحديثه ستؤثر على حق الطرف الآخر في عرض وجهة نظره، وحينئذ يجب إيقاف المتحدث أو إنهاء الحوار؛ فهذا يعد إخلالا بأصل من أصول الحوار. وقد اشتهر الرسول ﷺ بهذا الأدب حتى وصفه المنافقون بأنه أذن؛ قال تعالى: "وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ". أي هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه. وهنا يجدر بنا ملاحظة أن ترك الفرصة للآخر للإسهاب في عرض وجهة نظره كثيرا ما تكشف عن نقاط الضعف في رأيه وتكفينا مؤونة الرد عليه؛ وفي ذلك يقول الجامعة: "كَلِمَاتُ فَمِ الْحَكِيمِ نِعْمَةٌ، وَشَفَتَا الْجَاهِلِ تَبْتَلِعَانِهِ".

- **أن يتحدث بما يُغضب:** يقول الجامعة: "سَمْعُ الانْتِهَارِ مِنَ الْحَكِيمِ خَيْرٌ لِلإِنْسَانِ مِنْ سَمْعِ غِنَاءِ الْجُهَّالِ". ويقول سفر الأمثال: "تَوْبِيخَاتِ الأَدَبِ طَرِيقُ الْحَيَاةِ". وحتى وإن لم يكن محدثنا حكيما فلا تصح مقاطعته، ويروى في ذلك أن الرسول ﷺ "لما جاءه عتبة بن ربيعة يساومه على الرسالة ويعرض عليه الدنيا مقابل ترك تبليغ الرسالة، مع ما في ذلك من إهانة له ﷺ واتهام له بالكذب؛ لم ينتهره النبي ﷺ، ولم يمنعه من إكمال حديثه، بل لم يغضب لكلامه ولم يشح بوجهه عنه، بل كان

رد النبي ﷺ على عتبة عندما قال له: "فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. . أن قال: يا أبا الوليد اسمعْ". وعندما انتهى عتبة من كلامه، لم يبادره النبي ﷺ بالرد حتى استوثق من أنه قد أنهى كلامه، فقال له النبي ﷺ: "أفرغت يا أبا الوليد؟. قال: نعم. قال: اسمع مني. قال: افعلْ"، وبدأ ﷺ يبين له حقيقة أمر الرسالة. وهنا نرى كيف أثمر هذا المنهاج النبوي في جعل عتبة يستمع إلى النبي ﷺ.

ب- عدم مشاركة أو مسابقة المتحدث الحديث لقول ما يقوله:

يقول ابن المقفع: "إذا رأيت رجلا يحدث حديثا قد علمته أو يخبر خبرا قد سمعته، فلا تشارك فيه ولا تتعقبه عليه حرصا على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإن ذلك خفة وسوء أدب وسخف". . ويقول: "من الأخلاق التي أنت جدير بتركها إذا حدث الرجل حديثا تعرفه ألا تسابقه وتفتحه عليه وتشاركه حتى كأنك تظهر للناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم وما عليك إلا أن تهنئه بذلك، وتفرده به،وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرة".

وأنشد الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تشارك في الحديث أهله *** وإن عرفت أصله وفرعه

ج – عدم تكملة جمل المتحدث:

إن تكملة جمل المتحدث يمكن اعتبارها علامة على حسن الانتباه فهي تقدم تغذية راجعة للمتحدث للتأكيد على الانتباه لكلامه؛ إلا أنها في نفس الوقت قد يفهم منها إساءة ما للمتحدث (استعجاله في الحديث والملل منه، التعبير عن أن كلامه متوقع ولا جديد فيه.....الخ).

أضف إلى ذلك أنه من الممكن تخمين النهايات الخاطئة، وخطورة ذلك تتجلى في أمور عدة منها:

- أن محدثك قد لا يبين خطأك كي لا يحرجك ويظهر حمقك، ومن ثمة قد يعجز عن الاستمرار في كلامه والذي قد يكون مهما لك.
- أنك قد تثير شكوكا في موقفك لم يكن الآخر يتذكرها أو يعلمها.

د – عدم إظهار المشاعر السلبية أثناء الاستماع للآخر:

كالملل: ومن مظاهره: طقطقة الأصابع، النقر بالأصابع، فر الأوراق، القراءة، الأحاديث الجانبية، النظر في الساعة، وأحيانا عدم النظر إلى المتكلم.

وكالرفض: ومن مظاهره: التصفيق لأحد المتحاورين دون الآخر، وإظهار علامات التعجب، والسخرية.

فكل هذا ضد العدل والمساواة في فرصة إبداء الرأي. . ولا يكفي أن يتجنب المستمع ما سبق ذكره؛ بل عليه أن يظهر كل ما يدل على اهتمامه بالاستماع إلى محدثه، وأن يضع نفسه مكان محدثه، وليعلم أن دوره في الحديث قادم، وكما يدين يدان.

ومن ثمة يجب على المتحدث ترك الالتفات إلى الحاضرين: وافقوه أم خالفوه؛ فهو مشوِّش للذهن: داع للرياء إن وافقوه، والانقطاع إن خالفوه.

يقول الجويني في ذلك: "التقرب إلى الله سبحانه يكون بحيث يمنعك عن الالتفات إلى الحاضرين خالفوك أم وافقوك؛ فإنه سبحانه عند ذلك يكفيك المهم، ويعينك في تقوية ذهنك وتصفية فهمك وإمداد خواطرك والكشف عن الحق على لسانك".

هـ ـ إعطاء الآخر الفرصة أولا لعرض وجهة نظره:

يقول يعقوب في رسالته في الكتاب المقدس: "يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ، لِيَكُنْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُسْرِعًا فِي الاسْتِمَاعِ، مُبْطِئًا فِي التَّكَلُّمِ".

ويقول تعالى مشيرا إلى هذا الأدب: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى* قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾. فنجد السحرة ونجد موسى عليه السلام كل يؤثر محاورَه في البدء بتقديم البراهين والبينات التي يراها تشهد لصحة موقفه؛ ليربح الآخر قبل أن يربح الحوار.

العنصر الثالث: أدب: اعتدال المزاج

عزيزي الدارس، على المحاور تجنب الحوار في كل حالة يقع فيها تحت ضغط نفسي: كحالة الجوع، والعطش، والغضب، والمرض، والجلسة غير المريحة، والقدر غير المناسب من الحرارة، أو البرودة، أو الإضاءة، أو القدر الزائد من الضوضاء، أو غوغائية الحضور.

يقول النبي ﷺ في ذلك: "لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان"؛ وقد قاس الفقهاء على الغضب كل ما يجعل القاضي تحت ضغط نفسي ضمانا للعدل والإنصاف، والمحاور كالقاضي؛ بل قد يزيد عليه في الأهمية في بعض الأحيان؛ فكثيرًا ما يكون المحاور في موقف يترتب على حواره فيه من المفاسد والمصالح ما هو أعظم مما يترتب على حكم القضاة في بعض المسائل؛ وعندئذ يكون التزام المحاور بهذه الآداب أوجب من التزام القضاة.

ويقدم لنا النبي ﷺ قدوة في التحلي بالصبر على المحاور وعدم الغضب مهما كان قوله أو أسلوبه؛ فعندما جاءه ضمام بن ثعلبة قائلا: "إني سائلك ومغلظ في المسألة، فلا تجدن في نفسك؛ قال: لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك". وكانت النتيجة إسلامه وإسلام قومه.

العنصر الرابع: أدب الرفق واللين

عزيزي الدارس، يقول الكتاب المقدس: "تَأَنَّوْا عَلَى الْجَمِيعِ".

ويقول النبي ﷺ: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه". و"إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله". فـ"من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الخير؛ وليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن".

وفي القرآن الكريم يقول تعالى لموسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾. أي اجعله مسؤولا مختارا، ولا تجعله مأمورا مكرها.

وتؤكد الأديان المختلفة أن الرفق واللين له أثره في الاستيلاء على المسامع والقلوب، ومن ثمة نجاح الحوار.

فيقول مؤسس الديانة التاوية أو مطورها الأعظم الحكيم الصيني القديم لاو تسو: "إذا انحنيت تغلب، وما هو بالقول الفارغ، إذا عملت به أمنت حتى النهاية".

ويقول الكتاب المقدس: "اللِّسَانُ اللَّيِّنُ يَكْسِرُ الْعَظْمَ".

وفي القرآن الكريم يقول تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

ويروى في ذلك أن الخليفة المأمون، "وعظه واعظ وعنف له في القول.. فقال [المأمون] يا رجل، ارفق؛ فقد بعث الله من هو خير منك – يقصد موسى وهارون- إلى من هو شر مني – يقصد فرعون- وأمره بالرفق.

كما يبين القرآن الكريم أن غياب الرفق واللين كثيرًا ما يؤدي إلى فشل الحوار، وضياع الثمار المرجوة منه:

يقول تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ".

كما يؤكد على عدم مقابلة الفظاظة بمثلها:

يقول تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ويقول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

ويرسم لنا القرآن الكريم صورا مثلى في الرفق:

منها ذلك الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه آذر، والذي يحكيه المولى عز وجل في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

ومنها حوار سليمان عليه السلام مع الهدهد، فسليمان عليه السلام وقد أعطاه الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، يحاوره هدهد فيقول له بكل شجاعة: "أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِه"، فيتقبل سليمان عليه السلام هذه العبارة ويحملها على محمل الوصف، لا السب بالاتهام بالجهل، كما يفعل أصحاب السلطان مع من هم أقل منهم شأنا، بل نجده عليه السلام يقبل عذره في تغيبه، ويكلفه بحمل رسالة ملكية إلى ملكة سبأ كما يحكي القرآن الكريم.

ويرسم لنا المولى عز وجل صورا مثلى في الرفق في الحوار مع خلقه:

فنجده تعالى في حواره مع الملائكة حول خلق آدم عليه السلام يتقبل منهم ما يشبه أن يكون إنكارا أو اعتراضا كقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

ونجده تعالى في حواره مع إبراهيم عليه السلام يتقبل منه ما يشبه أن يكون شكا؛ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

فكيف لا يترفق العبد مع العبد في حواره! أليس بقياس الأولى أن يترفق العبد مع العبد! بل وبنص قوله ﷺ: "تخلقوا بأخلاق الله"، وقوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، وجب التخلق بهذا الخلق!

ملخص الوحدة التعليمية

عزيزي الدارس، إن أصل الأدب لغة: الدعاء، وسمي الأدب أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، والأدب الظَّرف وحُسْن التناول.

والأدب في الحوار في اصطلاح دراستنا هذه هو: كل ما يدعو إلى حسنه - من أخلاق وغيرها - لا إلى صحته، أي إنه فضل وإن كان مهما، لا يؤثر غيابه في كنه الحوار؛ ومن هنا فيمكن للحوار الإثمار وإن اختلت بعض آدابه إن تحمل طرف طرفا.

وما أشبه الفرق بين الأدب في الحوار والأصل بالفرق بين السنة والفرض. وإن كان للسنة نوعان: مؤكدة وغير مؤكدة؛ فلآداب الحوار مراتب: منها ما يهدف إلى زوال الوحشة ومنها ما يهدف إلى تحقق الألفة.

وتتأتى أهمية الأدب في الحوار من أمور منها: مرارة الحقيقة علي الذي عليه الحق، ومن هنا توجب ألا نزيد الحق مرارة بأسلوب تقديمه وتبيينه. ومنها: أن الحجة وحدها ليست كافية دوما لتقبل الإنسان لها؛ وإن تقبلها بعقله قد يجحدها بقوله، وإن أقرها بلسانه قد لا يلتزم بمقتضاها في فعله؛ ومن هنا توجب أن يكون الحوار مع الآخر مشفوعا بخطاب للمشاعر الإنسانية، ويتمثل ذلك أول ما يتمثل في الأدب في الحوار.

عزيزي الدارس، إن تعلم حسن الاستماع لا يقل أهمية عن تعلم حسن الكلام؛ وتتجلى آداب الاستماع للمحاور في صور عدة منها: عدم مقاطعة حديثه، وعدم مشاركته أو مسابقته الحديث لقول ما يقول، وعدم تكملة جمله،

وعدم إظهار المشاعر السلبية أثناء الاستماع إليه، وإعطاؤه الفرصة أولا لعرض وجهة نظره.

عزيزي الدارس، على المحاور تجنب الحوار في كل حالة يقع فيها تحت ضغط نفسي ضمانا للعدل والإنصاف: كحالة الجوع، والعطش، والغضب، والمرض، والجلسة غير المريحة، والقدر غير المناسب من الحرارة، أو البرودة، أو الإضاءة، أو القدر الزائد من الضوضاء، أو غوغائية الحضور.

عزيزي الدارس، إن غياب الرفق واللين كثيرًا ما يؤدي إلى فشل الحوار، وضياع الثمار المرجوة منه، وفي المقابل فإن الرفق واللين له أثره في الاستيلاء على المسامع والقلوب، ومن ثمة نجاح الحوار.

المراجع الأساسية في تدريس المقرر

- أبوفرحة، د. جمال الحسيني (١٤٣٤) "الحوار مع الآخر: مفهومه وأصوله وأهم آدابه وأخطائه"، ط٢ المدينة المنورة، مكتبة دار الزمان.

الكتب والمراجع الموصى بها

- القوسي، د. مفرح سليمان (١٤٣٠هـ) ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- خوجة، محمد شمس الدين (١٤٣١هـ) الحوار: آدابه ومنطلقاته وتربية الأبناء عليه، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- العلواني، رقية طه، (١٤٢٦هـ) فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، ط١، المملكة العربية السعودية، جائزة الأمير نايف للسنة النبوية.
- ابن أبي الدنيا (2010م) كتاب الصمت وأدب اللسان، د.ط، بيروت، المكتبة العصرية.

- الحنبلي، ابن رجب (د.ت) الفرق بين النصيحة والتعيير، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، د.ط، القاهرة، المكتبة القيمة.
- الرفاعي، حامد أحمد (٢٠٠٦م). نحن والآخر وإشكالية المصطلح والحوار، ط١، جدة: مؤتمر العالم الإسلامي، المنتدى الإسلامي العالمي للحوار، سلسلة إصدارات (لتعارفوا)، العدد ٢٣.
- قاسم، عبد العزيز (٢٠٠٨م) الحوار والتقارب المذهبي في المشهد السعودي، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان.

خاتمة

بهذا نكون قد وصلنا أخي الدارس، إلى ختام الوحدة الرابعة، فإلى لقاءٍ يتجدّد مع الوحدة الخامسة، الّذي ينعقدُ بإذن اللّه، حول بعض من "آداب الحوار" مع خالص الأمنيات!

مدخل

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول اللّه وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد أخي الطَّالب، سلام اللّه عليكَ ورحمته وبركاته، ومرحباً بك في الدرس الخامس من سلسلة الدُّروس المقرَّرة عليك في إطار مقرر "أصول الحوار وآدابه"، لهذا الفصل الدِّراسيّ، آملينَ أن تجدَ فيها كلّ المُتعة والفائدة فأهلاً وسهلاً بك.

ثمرات الوحدة التعليمية

عزيزي الدارس في نهاية هذا الدّرس، يُتاحُ لك -بإذن اللّه - أن:

١. تقف على بعض من آداب الحوار.
٢. تقف على كيفية التصرف مع من لا يلتزم ببعض آداب الحوار.
٣. تتجلى لديك عظمة الإسلام في تأصيله لآداب الحوار.
٤. تستطيع التحاور بإيجابية.

العناصر

١. أدب: تجنب ادعاء احتكار الحقيقة.

٢. أدب: إنزال الناس منازلهم.

٣. أدب: البدء بذكر نقاط الاتفاق.

العنصر الأول: أدب: تجنب ادعاء احتكار الحقيقة

عزيزي الدارس، إن هذا الأدب إنما يُتطلب في الحوار بين المختلفين لا في كل أنواع الحوار، فلا يقتضيه الحوار بين العالم والتعلم مثلا.

والمتحاوران - باعتبار الصواب والخطأ - على أحوال: إما أنهما مجتهدان حق الاجتهاد، فأصاب أحدهما، وأخطأ الآخر، وإما أنهما على قدم متساوية من امتلاك الحقيقة، وإما أنهما على قدم متساوية من البعد عن الحقيقة لسبب أو لآخر، وإما أن أحدهما جاحد منكر لما يعلم صحته، وإما أن أحدهما جاهل يتكلم بما لا علم له به.

ورغم ذلك وفي أغلب الأحوال فإن دعوى احتكار الحقيقة قبيل بدء الحوار بين المختلفين وفي أثنائه إنما هي دعوة إلى التفارق لا إلى التحاور والتواصل. فإذا انتهى الحوار وانتفت صفة المتحاورين عن أطرافه فلكل أن يعلن قناعته، وإن زعم احتكار الحقيقة.

ويشهد لهذا الأدب معان لغوية للحوار سبق بيانها في المحاضرة الأولى؛ منها: التحير والوقوف والتردد؛ والغيم، وبينا هناك أن مبدأ التظاهر بعدم وضوح الرؤية والحيرة والتردد في الحوار بين المختلفين يشفع له كذلك أحد المعاني اللغوية **لصيغة "تفاعل"** والتي تأتي كلمة "تحاور" على وزنها الصرفي وهو معنى: "التظاهر بالفعل دون حقيقته" كقولنا: تناوم، وتغافل، وتعامى: أي أظهر النوم والغفلة والعمى، وهي منتفية عنه.

على أنه ينبغي التفريق هنا بين نوعين من المحاورات: الأول: يهدف إلى الكشف عن الحقيقة أمام مخالف أو مخالفين؛ وفي هذه الحالة أرى أن الأولى هو التظاهر بعدم وضوح الرؤية والحيرة والتردد تأليفا للقلوب.

و**الثاني:** يهدف إلى الكشف عن الحقيقة أمام جمهور متنوع ما بين موافق ومخالف، وفي هذه الحالة أرى أن على المحاور الاختيار بين المنهجين: منهج ادعاء الحيرة والتوقف والتردد، ومنهج الإعلان عن القناعة وإن زعم احتكار الحقيقة خوفا من فتنة الموافقين، وذلك بحسب طبيعة الموضوع والسامعين وطرف الحوار الآخر.

ومبدأ تجنب ادعاء احتكار الحقيقة قبل بدء الحوار بين المختلفين **قاربه الشافعي** بقوله: "رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

وعبر عنه القرآن الكريم بشكل أبلغ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛

فالآية الكريمة هنا لا تكتفي بأن تضع المتحاورين في مرتبة واحدة من الحق؛ وهو ما لم يفعله الشافعي؛ بل تؤثر الآخر وتفترض قبل البدء في الحوار معه أنه الأقرب إلى الحق؛ فينسب المتحاور الإجرام إلى نفسه ومطلق العمل إلى الآخر.

ويعلل الفخر الرازي ذلك المنهج القرآني بقوله في تفسير الآية السابقة: "لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم". ويستطرد الفخر الرازي قائلا: "إن أحد المتناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ. يغضبه، وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم؛ فيفوت الغرض؛ وأما إذا قال له: بأنا أحدنا لا يشك في أنه مخطئ، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق، فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز؛ فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر، ويترك التعصب؛ وذلك لا يوجب نقصا في المنزلة لأنه أوهم بأنه في قوله شاك، ويدل عليه قول الله

تعالى لنبيه (وإنا أو إياكم) مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون".

ويقول **الغزالي** في ذلك: "التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس".

ومن منطلق الابتعاد عن التعصب واستثارة الأهواء اتبع **سقراط** منهجا في الحوار يقوم على طرح أسئلة على المتحاور معه تجعله يتوصل إلى الحقيقة بنفسه أو قول ما نريد قوله، وبهذا يظهر المتحاور معه في صورة العالم السابق إلى الحقيقة، ومحاوره في صورة المتسائل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

ما يدل على أن كل كتاب وكل مقال من عند غير الله لابد فيه من الاختلاف الكثير مع الحق؛ ومن ثمة لا يبقى مجال لمدع أن يدعي احتكار الحقيقة كاملة.

وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ فنجد المولى عز وجل يبين أن منطلق المجادلة لابد وأن

يكون من الإعلان بأن الله تعالى هو وحده الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو وحده الأعلم بالمهتدين، ومن ثمة فليس من حق أحد ادعاء احتكار الحقيقة كاملة في حواره مع المخالف؛ وهو ما يؤكد عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ومن ثمة كان من وصايا النبي ﷺ لقادة السرايا الحربية قوله: "إن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله؛ فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا". أي: أنزلهم على فهمك لحكم الله ورسوله الذي لا يحجر على غيره من الفهوم المقبولة لغة وشرعا، وليس المقصود حكمك الذي لا يتقيد بالنص إن وجد النص. فليس من حق إنسان أن يدعي حكما لله إلا فيما فيه نص قطعي الدلالة قطعي الثبوت، ومن ثمة إجماع.

والمساواة في حيازة الحقيقة بين المختلفين ليست مجرد أدب لتأليف القلوب. وليست مجرد افتراض نظري- ينطلق من المساواة بينهما إذا أديا التكليف بمحاولة إدراك الحقيقة بحسب الطاقة؛ فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. **كما أنها ليست مجرد حكم أخروي**- ينطلق من المساواة بينهما في كونهما مأجورين في الآخرة ما أديا حق الاجتهاد. **بل كثيرًا ما تتحقق المساواة في حيازة الحقيقة عمليا على أرض الواقع ويبين ذلك ما يلي:**

أولا: هذه المجموعة من الصور التي يختلف الناس في رؤية ما فيها وبإمعان النظر يتبين أنها تحوي كل ما يقولون ولا تتكامل الحقيقة إلا باجتماع الرؤى المختلفة:

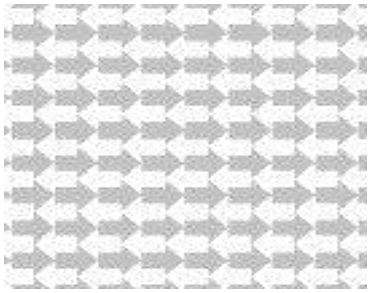

فهذه الصورة من يبتدئ النظر إليها من يمين الصفحة سيرى فيها صورة لبطة، ومن يبتدئ النظر إليها من يسار الصفحة سيرى فيها صورة لأرنب.

وهذه الصورة من تقع عينه على لونها الرمادي سيرى فيها صورة لأسهم رمادية متجهة إلى يسار الصفحة، ومن تقع عينه على لونها الأبيض سيرى صورة لأسهم بيضاء متجهة إلى يمين الصفحة.

وهذه الصورة من تقع عينه على سوادها سيرى فيها صورة لأناس سود ومن تقع عينه على بياضها سيرى فيها صورة لأعمدة بيض.

ثانيا: هاتان الصورتان اللتان تختلف وجهة نظر المتأمل فيهما كلما أمعن النظر، وهما يحويان كل ما يراه المتأمل؛ إضافة إلى ذلك فهما يؤكدان على مبدأ نسبية بعض الحقائق واختلافها بحسب اللحظة التي يُنظر إليها فيها:

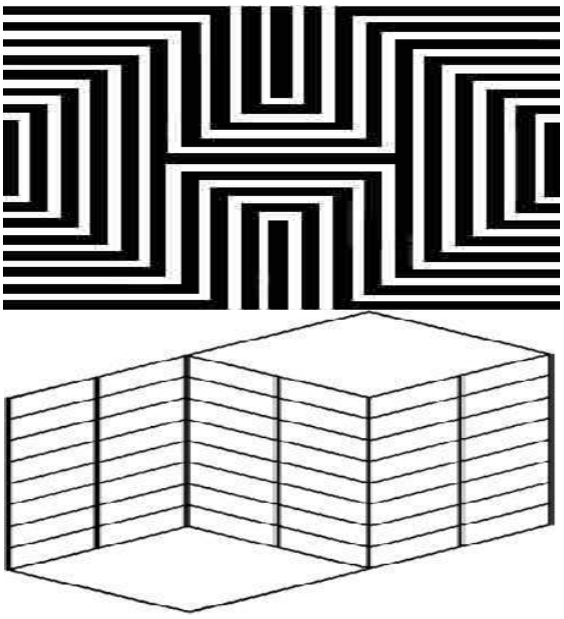

ثالثا: تلك القصة الرمزية التي يحكيها لنا أبو حيان التوحيدي نقلا عن أفلاطون والتي يقول فيها: إن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه، ولا أخطئوه في كل وجوهه؛ بل أصاب منه كل إنسان جهة؛ ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل وأخذ كل واحد منهم جارحة منه فجسَّها بيده ومثَّلها في نفسه، فأخبر الذي مسَّ الرِّجْل أن خلقة الفيل طويلة مدوَّرة شبيهة بأصل الشجرة، وجذع النخلة، وأخبر الذي مسَّ الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية، والرابية المرتفعة، وأخبر الذي مسَّ أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره؛ فكل واحد منهم قد أدَّى بعض ما أدرك، وكل يكذّب صاحبه ويدَّعي عليه الخطأ والغلط والجهل فيما يصفه من خَلْق الفيل!.

رابعا: ما رواه البخاري وغيره عن اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في فهم المراد من قوله ﷺ: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة" حين فهمت طائفة أن المراد الحث على الإسراع، وفهمت أخرى أن المراد هو التطبيق الحرفي للأمر؛ وإذا بالنبي ﷺ يقر الاجتهادين؛ بل ويجعل المختلفين في الرأي ما استنفدا جهدهما في الاجتهاد مأجورين: المصيب والمخطئ؛ كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران؛ وإذا حكم فأخطأ فله أجر". فكيف يطعن على المخطئ في أمر هو مأجور عليه من الله تعالى؟! ومن يأجره الله تعالى على فعل ألا يأجره الناس عليه! ولو معنويا بتكريمه بالمساواة بينه وبين المصيب في اعتبار حيازة الحقيقة حتى ينتهي الحوار!

ومن هذا المنطلق الفكري نجد في تراثنا الإسلامي ما يلي:

- **من العلماء من فهم أن الاجتهاد الفقهي** ما استوفى أركانه ليس فيه مخطئ ومصيب، و"أن الصواب في كل مسألة ما انتهى إليه حكم المجتهد فيها، وإن اختلفت الاجتهادات، ونتائجها، اختلاف تضاد، لا مجرد اختلاف تنوع. فالخلاف الفقهي من هذا المنظور ما هو إلا مظهر من مظاهر السعة واليسر في شريعة الله الخاتمة؛ قائما مقام تعدد الرسالات واختلاف التشريعات في الأمم السابقة لمناسبة أحوال أهل كل زمان ومكان.

- **إن من رأى من العلماء أن حكم الله واحد** ومن ثمة فالمصيب رأي واحد؛ أفسح المجال للاختلاف في الرأي؛ يقول ابن تيمية: "إن حكم الله واحد، وأن من خالفه باجتهاد سائغ مخطئ معذور مأجور....فإنه لا يكلف نفسا إلا

وسعها". ويقول الجويني: "كل مجتهد في الفروع مصيب عندنا، ومن قال إن المصيب واحد فهو غير متعين عنده".

❖ **من الفقهاء من كان يطبق أحيانا آراء فقهية لم يقل بها**؛ سدًا لباب الفتنة، وتأكيدًا على مبدأ المساواة في اعتبار حيازة الحقيقة بين من استوفى أركان الاجتهاد، فصلى الشافعي الصبح في مسجد أبي حنيفة فلم يقنت ولم يجهر ببسم الله تأدبًا مع أبي حنيفة رحمهما الله.

❖ **من العلماء من ذهب إلى إنكار أن تسمى مسائل بمسائل الأصول لا يقبل الخلاف فيها ويكفر المخالف فيها؛ ومسائل تسمى بمسائل الفروع يُقبل الخلاف فيها ولا يُكفَّر المخالف فيها**: يقول ابن تيمية: "السلف وأئمة الفتوى كأبي حنيفة والشافعي والثوري وداود بن علي وغيرهم، لا يؤثمون مجتهدا في المسائل الأصولية، ولا في الفروعية،...هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين.....والفرق بين مسائل الفروع والأصول إنما هو من أقوال أهل البدع .....كما أنها [أي الفروق المزعومة] محدثة في الإسلام لم يدل عليها كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف والأئمة، فهي باطلة".

ويقول ابن تيمية: "المجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومفت، وغير ذلك، إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع، ولا يعاقبه الله البتة".

ويقول:"وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة [بدعة من وجهة نظر ابن تيمية]، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يُرد منها [من وجهة نظر ابن تيمية]، وإما لرأي رأوه، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل

ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. وفي الصحيح أن الله قال: (قد فعلت)".

ويؤكد الذهبي على هذه النظرة الإسلامية بقوله: "لو أنا كلما أخطأ إمام [من وجهة نظر ما] في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن مَنْدَة ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق وهو أرحم الراحمين فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة".

ومن الطريف أن هذا الأدب استخدمه قوم نوح في حوارهم معه عليه السلام ليظهروا بمظهر الاعتدال ليُكسبوا موقفهم من الخصومة شيئا من القوة كما يحكي عنهم القرآن في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. . فلم يقولوا له كما قالت قريش للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾؛ وإنما قالوا له "مَا نَرَاكَ .... وَمَا نَرَاكَ .... وَمَا نَرَى لَكُمْ...." ومن ثمة كان قولهم في نهاية المطاف ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. فأعلنوا الشك ولم يقطعوا بكذبه عليه السلام؛ وقد رد عليهم نبي الله نوح عليه السلام بنفس الأسلوب فقال: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

وختاما أقول:

مخطئ المحاور الذي يظن أنه في غاية التعقل والموضوعية، وأن قيمه ومعتقداته وميوله واتجاهاته النفسية وحالته الانفعالية ومصلحته الشخصية....الخ، كل ذلك لا يؤثر على موضوعيته في الحوار بدرجة أو بأخرى بعمد أو بغير عمد!. **ومن هنا يتوجب** على من أراد التحاور مع مخالف استبدال تلك العبارات المعبرة عن الجزم والقطع باحتكار الحقيقة بأخرى كقول القائل: "هكذا يبدو لي الأمر"، أو "هذه هي الحقيقة كما أراها".....الخ. **وهو ما يترتب عليه** بلا شك إظهار كل ما يدل على احترام الآخر: سواء بالكلمات أو الحركات أو النظرات أو الإيماءات....الخ.

وإنه لمن الخطورة بمكان أن نقدم أنفسنا للناس وكأننا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو أن نجعل أنفسنا التطبيق النموذجي لدين الله الحق. وذلك أن دفع الأمور باتجاه شيطنة الآخر لا يفضي إلا إلى مزيد من التشظي والتوتر؛ وهو ما يعارضه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

العنصر الثاني: أدب: إنزال الناس منازلهم

عزيزي الدارس، لابد للمحاور أن يُنزل الناس منازلهم، وأن يخاطبهم على قدر عقولهم؛ فلكل مقام مقال.

وعن عبد الله بن مسعود قال: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". وعن علي بن أبي طالب قال: "حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذب الله ورسوله".

وقال ﷺ: "أنزلوا الناس منازلهم"؛ وقال: "أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم".

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

وليس المقصود باللسان- في رأيي هنا- اللغة بحروفها ومعانيها اللغوية فقط؛ وإنما اللغة بأبعادها الثقافية المختلفة ومستوياتها المتعددة.

ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

فالمدعوون بالحكمة طائفة، والمدعوون بالموعظة الحسنة طائفة، والمجادلون طائفة أخرى.

وقد كان ﷺ قدوة في ذلك؛ فلم ينقل التاريخ أن أحدا جاء إليه ﷺ فصعب عليه فهم شيء من الإسلام؛ وبالطبع فإن هؤلاء الذين بعث النبي ﷺ بين أظهرهم كانوا كأي مجتمع آخر درجات شتى: منهم الذكي ومنهم من هو دون ذلك، ومنهم العالم ومنهم الجاهل.

إلا أنه ينبغي ألا يشار لإنسان بأنه محروم من علم لا يتحمله عقله، ويتحمله عقل غيره من بني البشر، ويبين الغزالي الحكمة من ذلك بقوله: "أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقا ..... فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ..... إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن ..... كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله ..... فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر ...[انحل] عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخوض فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره؛ بل لا ينبغي ..... أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص".

العنصر الثالث: أدب: البدء بذكر نقاط الاتفاق

عزيزي الدارس، إن البدء بذكر نقاط الاتفاق عند تحرير محل النزاع، يعد بداية تقلل من حدة الخلاف، وتضيق فجوته؛ وتستثير الرغبة في التوافق والاتفاق في محل النزاع.

وهو أدب يأمر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فهنا يرشدنا القرآن الكريم إلى نقاط اتفاق يمكن أن تكون منطلقا للحوار مع أهل الكتاب والتي تلخصها الآية في الآتي: **أولا**: ما أنزل إلينا وكان متفقا مع ما أنزل إليهم. **ثانيا**: التوحيد وإن تأوله كثير منهم تأولا شركيا لكنهم يقرون بأصله وهو "ألا إله إلا الله" كما سيأتي بيانه. **ثالثا**: وجوب الإسلام لله، ويكون ذلك بالإسلام لحكمه تعالى، والذي يُعرف بالحوار ويتطلب الإسلام لأصول الحوار وآدابه.

والأمثلة على هذا النهج عديدة في القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾. . فنجد الحوار يبتدئ بالمشتركات لينطلق منها إلى نقاط الخلاف.

ومن أمثلة ذلك كذلك، قول هارون لموسى عليهما السلام: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. . فنجد هارون عليه السلام هنا عندما وجد أن بينه وبين موسى عليه السلام خلافا فكريا في مسألة؛ بحث عن نقاط اتفاق يمكن أن تكون منطلقا للحوار في محل النزاع، فوجد الأخوة، فقال: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾؛ ثم وجد الرغبة في توحد بني إسرائيل وعدم فرقتهم، والرغبة في الاتباع وعدم الابتداع ، فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾؛ نجد إشارة إلى أن العلاقة بين بني البشر على اختلافهم الديني والسياسي والثقافي والعرقي....الخ، يمكن أن تنطلق من العقيدة المشتركة بينهم بأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة.

فإن لم تكن هناك نقاط اتفاق فالنفترض وجودها جدلا ونسير مع الخصم في تأملها وإعادة الحكم عليها؛ ومن أمثلة اتباع هذا المنهج:

- ما يحكيه المولى عز وجل عن إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ

وَالْـأَرْضَ حَنِيفًـا وَمَـا أَنَـا مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾. وهكـذا يفتـرض إبـراهيم عليـه السلام في حواره أنه يعبد الكواكب مثل محاوريه، لإبعاد المؤثرات النفسية السلبية عن الحوار (كنصرة الرأي والهوى والتحدي والعناد)، واستجلاب المؤثرات الإيجابية (الاشتراك معا في البحث عن الحق).

- ما يحكيه المولى عز وجل عن مؤمن آل فرعون من قولـه لقومـه عن موسى عليه السلام: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

فنجد مؤمن آل فرعون يشير إلى موسى عليه السلام بقولـه: "رجـلا" ليعبر عـن الحيـاد التـام تجاهـه، فكأنـه لا يـؤمن بـه، ومـن ثمـة لا يصـفه بصـفته "رسول الله"؛ ولا حتى يعرفه ومن ثمة لا يسمه باسمه "موسى".
ثم نجد مؤمن آل فرعون يقدم احتمال كذب موسى على احتمـال صـدقه، بـل ويقدم فرضـية صـدق موسـى الجزئـي علـى فرضـية صـدقه الكلـي، فيقـول: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

وفـي أثنـاء محـاولات الانطـلاق من نقـاط الاتفـاق المصـطنعة مـع الآخـر لـم ينس مؤمن آل فرعون الإشارة إلى ما يستدعي الإيمان الكامل بموسى عليه السلام وذلك في قوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وهنا يجدر تحذير المحاور من أمرين: **الأول:** أن يقع في أسر نقاط الاتفاق الحقيقية والمصطنعة ويظل يدور في فلكها حتى ينسى نقاط الاختلاف.

الثاني: بدلا من أن تكون نقاط الاتفاق بنوعيها وسيلة لاستثارة المخطئ للتوافق مع المحق، يستثار المحق للتوافق مع المخطئ في محل النزاع على حساب الحقيقة.

ملخص الوحدة التعليمية

عزيـزي الـدارس، إن دعـوى احتكـار الحقيقـة قبيـل بـدء الحـوار بـين المختلفين وفـي أثنائـه إنمـا هي دعوة إلـى التفـارق لا إلـى التحـاور والتواصـل. فإذا انتهى الحوار وانتفت صفة المتحاورين عن أطرافه فلكل أن يعلن قناعتـه، وإن زعم احتكار الحقيقة.

على أنه ينبغي التفريق هنا بين نوعين من المحاورات: الأول: يهدف إلـى الكشف عن الحقيقة أمام مخـالف أو مخـالفين؛ وفـي هذه الحالـة أرى أن الأولـى هو التظاهر بعدم وضوح الرؤية والحيرة والتردد تأليفا للقلوب. الثاني: يهدف إلى الكشف عن الحقيقة أمام جمهور متنوع ما بين موافق ومخـالف، ففـي هذه الحالـة أرى أنـه علـى المحـاور الاختيـار بـين المنهجين: مـنهج ادعـاء الحيـرة والتوقف والتردد تأليفا لقلب المحـاوَر، ومـنهج الإعلان عن القناعـة وإن زعـم احتكـار الحقيقـة خوفـا مـن فتنـة المـوافقين، وذلـك بحسـب طبيعـة الموضـوع والسامعين وطرف الحوار الآخر.

والمسـاواة فـي حيـازة الحقيقـة بـين المختلفين ليسـت مجـرد أدب لتـأليف القلـوب، وليسـت مجـرد افتـراض نظـري- ينطلـق من المسـاواة بينهمـا إذا أديـا التكليـف بمحاولـة إدراك الحقيقـة بحسـب الطاقـة؛ فــ ﴿لَـا يُكَلِّـفُ اللَّـهُ نَفْسًـا إِلَّـا وُسْعَهَا﴾. كما أنها ليست مجرد حكم أخروي- ينطلق من المساواة بينهما في كونهمـا مـأجورين فـي الآخـرة مـا أديـا حـق الاجتهـاد. بـل كثيـرًا مـا تتحقـق المساواة في حيازة الحقيقة عمليا على أرض الواقع.

ومخطئ المحاور الذي يظن أنه في غاية التعقل والموضوعية، وأن قيمه ومعتقداته وميوله واتجاهاته النفسية وحالته الانفعالية ومصلحته الشخصية....الخ، كل ذلك لا يؤثر على موضوعيته في الحوار بدرجة أو بأخرى بعمد أو بغير عمد!. ومن هنا يتوجب على من أراد التحاور مع مخالف استبدال تلك العبارات المعبرة عن الجزم والقطع باحتكار الحقيقة بأخرى كقول القائل: "هكذا يبدو لي الأمر"، أو "هذه هي الحقيقة كما أراها".....الخ. وهو ما يترتب عليه بلا شك إظهار كل ما يدل على احترام الآخر: سواء بالكلمات أو الحركات أو النظرات أو الإيماءات....الخ.

وإنه لمن الخطورة بمكان أن نقدم أنفسنا للناس وكأننا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو أن نجعل أنفسنا التطبيق النموذجي لدين الله الحق. وذلك أن دفع الأمور باتجاه شيطنة الآخر لا يفضي إلا إلى مزيد من التشظي والتوتر.

عزيزي الدارس، لابد للمحاور أن يُنزل الناس منازلهم، وأن يخاطبهم على قدر عقولهم؛ فلكل مقام مقال.

ومع ذلك ينبغي ألا يشار لإنسان بأنه محروم من علم لا يتحمله عقله، ويتحمله عقل غيره من بني البشر، فإن ذلك يشوش عليه قلبه؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق؛ فما من أحد إلا وهو راض عن كمال عقله. أضف إلى ذلك أن إشراك العامي في علوم الخاصة معطل للصناعات التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص.

عزيزي الدارس، إن البدء بذكر نقاط الاتفاق عند تحرير محل النزاع، يعد بداية تقلل من حدة الخلاف، وتضيق فجوته؛ وتستثير الرغبة في التوافق والاتفاق في محل النزاع.

فإن لم تكن هناك نقاط اتفاق، فالنفترض وجودها جدلا، ونسير مع الخصم في تأملها وإعادة الحكم عليها.

وهنا يجدر تحذير المحاور من أمرين: الأول: أن يقع في أسر نقاط الاتفاق الحقيقية والمصطنعة ويظل يدور في فلكها حتى ينسى نقاط الاختلاف. الثاني: بدلا من أن تكون نقاط الاتفاق بنوعيها وسيلة لاستثارة المخطئ للتوافق مع المحق، يستثار المحق للتوافق مع المخطئ في محل النزاع على حساب الحقيقة.

المراجع الأساسية في تدريس المقرر

- أبوفرحة، د. جمال الحسيني (١٤٣٤) "الحوار مع الآخر: مفهومه وأصوله وأهم آدابه وأخطائه"، ط٢ المدينة المنورة، مكتبة دار الزمان.

الكتب والمراجع الموصى بها

- القوسي، د. مفرح سليمان (١٤٣٠هـ) ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- خوجة، محمد شمس الدين (١٤٣١هـ) الحوار: آدابه ومنطلقاته وتربية الأبناء عليه، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- العلواني، رقية طه، (١٤٢٦هـ) فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، ط١، المملكة العربية السعودية، جائزة الأمير نايف للسنة النبوية.
- ابن أبي الدنيا (2010م) كتاب الصمت وأدب اللسان، د.ط، بيروت، المكتبة العصرية.

- الحنبلي، ابن رجب (د.ت) الفرق بين النصيحة والتعيير، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، د.ط، القاهرة، المكتبة القيمة.
- الرفاعي، حامد أحمد (٢٠٠٦م). نحن والآخر وإشكالية المصطلح والحوار، ط١، جدة: مؤتمر العالم الإسلامي، المنتدى الإسلامي العالمي للحوار، سلسلة إصدارات (لتعارفوا)، العدد ٢٣.
- قاسم، عبد العزيز (٢٠٠٨م) الحوار والتقارب المذهبي في المشهد السعودي، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان.

خاتمة

بهذا نكون قد وصلنا أخي الدارس، إلى ختام الوحدة الخامسة، فإلى لقاءٍ يتجدّد مع الوحدة السادسة، الّذي ينعقدُ بإذن اللّه، حول بعض من "آداب الحوار" مع خالص الأمنيات!